اخترتُك ونَدِمت

ميادة قباري – مصر

تَوَقَّفْتُ أمامَ ذلك الساحر المموّج أمامى، أتنفّس تلك الرائحة المُمَلَّحة التي يركضُ خلفَها الكثير؛ ابتسمتُ بكسرةٍ وأنا أنظر له معاتبةً كعادتي: "هل هذا وعدُك لي أيها البحر الساحر؟! لقد وعدتني بالسعادة والحياة؛ وعدتني أنني لن أندمَ أبدًا، واستسلمت لإرادتك وقدتني إلى هلاكي"!

سرحت بذكرياتنا التي لابد أن أنساها ولكنّها كشريطِ سينيما تأبَى التوقُّفَ عن سردِ نفسها داخل عقلي!

تذكرتُ ذلك اليوم الذي بدا كئيبًا فى أوّله، كنت أستمع للكثير من النقد على عملي الروائي الذي على عكس النقد بيعت منه عدة طبعات كنت متعجّبةً كيف ينجحُ كلُّ هذا النجاح؟!

بينما يتلقي كلُّ ذلك النقد الجارح؛ مسحت دمعةً سقطت رغمًا عنى لأستمع إلى صوتِ مَرَحٍ يخبرني قائلا:

"تلك العيون لا يجدر بها سوى الضحك"!

استدرتُ أنظرُ إلى الصوتِ متعجبةً من هُوَ ليتحدث معي هكذا؛ ابتسم مجددًا وهو يقول:

"الجميلة (شمس العناني) لا يجدر بها البكاء! كيف تقدّم البسمةَ لآلاف المعجبين بينما هي تبكي هكذا؟!"

ابتسمتُ له وحييتُه في أدبٍ ولكنّه اقتربَ أكثر وظلَّ يتحدّث معي وكأننا أصدقاء؛ لقد كان نجدتي من غبطةِ قلبي!

استمرّ حديثُنا لأيامٍ طويلةٍ لم أعد أعدها؛ فالوقتُ يمرُّ كأنّه لحظات عندما تشعر بالسعادةِ مع أحدهم، نسيتُ معه من أنا وماذا كانت حياتي من قبل أن أجدَه، تناسيتُ ذلك النقد الذي كان ينخر أضلاعي، كلُّ الألسن اللاذعة التي كانت تلدغني كثعبانٍ جائعٍ يستعد لالتهام فريسته لم تعد تعني لي شيئًا بعد أن عرفتُه وعرفت عنه كل شيءٍ أو هكذا سوَّلت لي نفسي!

بدأَ قلبي بنبضاتٍ خافتةٍ يخفقُ نبضاتٍ لم أعلم كنيتَها، حاولتُ أن أنساها ولكنّها كانت تزدادُ قوةً، مع الوقت بدأتُ أستشعر أنّه هو سبب النبضات فكلّما أقترب منه ضربَ إعصارٌ قلبي وانفجر أخيرًا عندما طلب مني اللقاء عند النقطةِ من البحر التي تقابلنا فيها أول مرةٍ، عندما نظرتُ إليه كانت نظرته تلك المرةَ مختلفةً، وقتها تَمَسَّكَ بيدي قائلًا بابتسامته الساحرة التي أغرقتني به:

"لم أَعُدْ أستطيع الصمت أكثر من ذلك؛ لا أريد للشمس أن تغرب أبدًا عن عالمى، أريدها أن تشرق للأبد ولكي تشرق لي للأبد لا بدَّ أن تكون ملكي؛ فهل ترغبين يا شمسي أن تكوني ملكًا لي؟! .... (شمس) أنا أحبُّك"!

هَرَبَ الكلام من حلقي؛ هل هذا يوم سعدي أم يوم تعاستي؟ لم أكن أعلمُ وقتَها ما سيحدث إن وافقت أو رفضتُ! كانت نظراتي حائرةً!

طالَ صمتي وأنا أنظر له لا أعلم بماذا أردّ.... شَعُرَ باليأس واغْرَوْرَقَتْ عيناه بالدموع، وَهَمْهَمَ بكلامٍ غيرِ مفهومٍ، وَهَمَّ بالرحيل،كان سيرحلُ ويأخذ قلبي معه، لم أشعر إلا بصوتي وهو يصرخ عاليًا:

"وأنا أيضًا أحبك وأرغب بتمضيةِ المتبقي من عمري معك"!

استدار ناظرًا إليّ بسعادةِ طفلٍ بالخامسةِ اشترت له والدتُه اللُّعبة التي رغبها، وركض ناحيتي لأجد نفسي مرتفعةً بالهواء وجسدي يطير، امتزجتْ ضحكاتُنا في سعادةٍ لم أشعرْ بمثيلتها من قبل!

أخيرًا ما كَبَتَهُ قلبي طويلًا، أخيرًا أنزلني وتحدَّثنا مطوَّلًا إلى أن صدمني بما أراد؛ حقًّا عندما نظر إلي بحبٍ قائلًا:

*"أريدك أن تهتمي بي فقط، أنا أشعر بالغَيْرةِ من عملك الذي يلتهم كلَّ وقتك، أنا كاتبٌ مثلك وأعلم أنّه أمرٌ شاقٌّ جدًّا أن تظلّي عاكفةً أمام الورق وتعصري عقلك الجميل لتخرجي بفكرةٍ مبهرةٍ"!

*"ولكن الكتابةَ هي حياتي؛ لا أستطيع أن أحيا بدونها"!

*"كلما استغرقتِ بالكتابة، كلما ابتعدتِ عني، وأنا لا أرغب بأن تبتعدي عني، فكِّري مليًّا فيما أقول؛ أنا حبيبُك الذي يتمنَّى سعادتك أم أعمالك الشاقة؟!".

تركني لأيامٍ أنعي حظي التَّعِس؛ شلّني التفكير كيف أستطيع أن أختار بين حياتي وقلبي؛ هل أختار الحبَّ الذي أشعرني بالسعادة الفترةَ القليلةَ الماضيةَ أَم أختار عملي الذي مهما عملت من أجل هؤلاء لن يروني كاتبةً جيدةً، وكانت النتيجة واضحة كوضوح الشمس؛ دائمًا ما يتغلّب قلبُ المرأةِ في تلك المواقف وكانت النتيجة هي أنّني ركضت إليه أُخبره أنني سأترك عملي لأجله؛ كم كانت سعادته غريبةً جدًّا عندما أخبرته أنني سأتركَ مجال الكتابِ وسيخبو نجمي الذي بدأ يصعدُ بقوةٍ ...

تزوّجنا أخيرًا، وبدأ نجمُه يصعد... عامان وأصبحَ كاتبًا مشهورًا، وأنا ربةُ منزلٍ بائسةٍ تتشاجر هي وزوجُ الأحلام على أتفه الأسباب؛ الرجل الوسيم الشهم الذي أخبرني يومًا أنّه يناصر حقوق المرأة اكتشفت أنه كاذب كبير، لقد كان الواقع لا يرى للمرأةِ أي حقوق؛ هي مجرَّد خادمةٍ لزوجها لا بأس من نهرِها عندما يكون عصبيًّا!
لا بأسَ من لطمِها على وجهها أحيانا بدون أيِّ سبب واضح؛ فقد زينت له نفسه ذلك الآن ... لم يكن أبدًا نفسَ الشخص الذي أوقعني في حبِّه وجعلني أتخلَّى عن مستقبلي لأجلِه!

ندمت على اليوم الذي أوقعني فيه في الحبّ، وندمت على ترك مستقبلي لأجله؛ فعلتُ ما تفعله كل السيدات في هذا الوقت وصبرت! ربما يعتدل حاله

ولكنّ الحال كان من سيئٍ إلى أسوأ، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي قررتُ فيه أنه لا مجال للتراجع الآن بعد ما سمعت!

عاد ذلك اليوم متأخرًا جدًّا بعد سهرةٍ مع بعض الأصدقاء ويبدو على وجهه الخدر، لا أعلم ماذا تناول ولكن بدا على وجهه الثمالة البالغة؛ عاتبته على ما هو فيه؛ فصرخ بوجهي قائلا:

"ومن تكونين حتى تخبريني ماذا أفعل هل تظنين أنكِ زوجتي أو حتى حبيبتي؛ لقد تزوجتك فقط حتى أكسر ذلك الأنف الذي بدأ يرتفعُ للأعلى لكي ينطفئ ذلك النجمُ البائس ولا ينافسني، وقد حدث! لقد نسي الجميع من تكون (شمس عناني) وجميعهم يتحدثون فقط عني أنا عن (فاروق الحديدي) وأنت لا شيءَ سوى خادمةٍ حقيرةٍ لم ترتقِ حتى لتكوني عاهرتي"!

لم تعتد عيناي البكاء على أحد كباقي الفتيات، ولكنّي ابتسمتُ بكَسْرةٍ وأنا أراه يرتمي على الفراش بتهالكٍ، وانسابتْ تلك الدمعةُ الحقيرةُ التى تخبرني أنني فتاةٌ كغيري عندما يقتلني من أحبّ لا بُدّ لعيني أن تذرف بعض الدموع، ولكنّي مسحتُها بقوةٍ وعزمتُ أمري سأخرجُ من تلك الحياةِ القاسيةِ وإلى الأبد!

سأحاول العودةَ إلى واقعي الجميل الذي تخلَّيْتُ عنه يومًا وندمت، الآن سأفعل المستحيل ولن أنْكَسِرَ مجددًا؛ أعلم أنّه يمكن أن يأخذ مني وقتًا طويلًا حتى أعود ويلتئمَ جرحي الذي أُصيبت به نفسي عندما سَوَّلت لي أنّه يهواني كما أفعل، ولكنني سأستمرُّ حتى أجدَ نفسي مجددًا حتى أجد (شمس العناني)...